الاستاذ وليم جمس

فقد العلم فيلسوفاً كبيراً بوفاة الاستاذ وليم جمس الاميركي توفي وهو في الثامنة والستين من عمره وقد كاد يقلب نظام الفلسفة ويجعلها عملية بعد ان كانت نظرية لانهُ اتقن العلم الطبيعي قبل ان اشتغل بها فلم يتعذَّر عليهِ ان ينظمها في سلكهِ ويزيل منها غموضها وابهامها ويكسبها طلاوة كانت عاريةً منها لانهُ طرق ابوابها مباشرةً من غير ان يسلك تيه المجاهل والاضاليل التي ضلَّ فيها الفلاسفة المتقدمون

درس العلوم الطبيَّة ورافق الشهير اغاسز في رحلتهِ الى البرازيل للبحث في المواضيع الطبيعيَّة وجُعل استاذاً للتشريح في جامعة هارفرد ثم جعل يدرّس الفسيولوجيا فيها وطرق المواضيع النفسيَّة من بَاب فسيولوجي فصار علماً يشار اليهِ بالبنان في الوصف النفسي وطبَّق المعارف النفسيَّة على المواضيع الدينية والمنطقيَّة وعلى المسائل الخيالية التي توصف بانها وراء الطبيعة وقبل ان يصل الى نتائج عليهِ ويحكم الاخيرة فارق هذه الحياة الدنيا التي بذل جهدهُ في كشف غوامضها وحل رموزها . ولقد كان همُّهُ الاكبر ولذتهُ العظمى في اظهار الحقائق ووصفها لا في استنتاج النتائج وبناء الآراء عليها وكان يكره المغالبة كما يكره التمثُّل والدعوى

ولا شبهة في كثرة ما افاد بهِ الفلسفة العملية . وكتابهُ في مبادىء السيكولوجيا او العلوم العقلية الذي نشرهُ سنة ١٨٩٠ صار عمدة في هذا الموضوع فانهُ وجد الفلسفة العقلية كثيرة الغوامض مبنية على مقدمات وضعية فقال يجب ان تصير مثل العلوم الطبيعية وضعية واختبارية ايضاً حيث يمكن الاختبار ووصف حقائقها وصفاً جديداً فكانت النتيجة ان زال الاهتمام بالتركيب وزاد الاهتمام بالتحليل

ورأى من اول الامر ان الفلسفة لا تتقدم وتصير علماً حقيقياً ما دامت محصورة ضمن دائرة الوصف ولا بدَّ من ان توضع فيها قواعد تستعمل بها نظرياتها في التمييز بين الامور المتخالفة لاظهار نسبة بعضها الى بعض ولهذا وضع علم الفلسفة العملية الذي سماهُ براغماتزم Pragmatism وقد لخصنا بعض خطبهِ فيهِ في المجلد الثاني والثلاثين من المقتطف . واشتغل في هذا الموضوع مدة الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من عمرهِ وكثر مناظروهُ فيهِ ولم تزل نار الجدال محتدمة بينهم

ومشقبة واضح وهو انهُ يجب ان يكون غرض الفلسفة البحث عن النتائج . والفيلسوف العملي يغضي عن كثير من المسلمات التي اعتاد الفلاسفة التصديق بها والاعتماد عليها يغضي عن الاقوال الموضوعة التي تتخذ حجةً والقضايا المسلمة التي تحسب من البديهيات والقواعد التي تقيد العقل بها والدعاوي التي مفادها خرق حجاب الغيب والوصول الى ما لا تدركهُ العقول . ويلتفت الى الحقائق المقررة الى الامور المادية الى الاعمال الى القوى الى ما تزاوله وتشعر بهِ . فيترك الامور النظرية ويتمسك بالامور العملية يترك العقائد والاقوال الموضوعة ويتمسك بما يراهُ في الطبيعة ويستنتجهُ من افعالها . وهذه الطريقة اي الطريقة العملية تغير مزاج الفلسفة فيقف امامها الفلاسفة النظريون مقلولي الايدي كما يقف رجال الملكية اذا صارت البلاد جمهورية . وبها تقترب الفلسفة من العلم ويتصالحان ويتوافقان

وقد ادّعى البعض ان فلسفتهُ تقوّض اركان الاديان كلها فانكر ذلك بتاتاً وقال « قد يظن لاول وهلة ان الفلسفة العملية تناقض الوحي او الاعتقاد بوجود الله وكل مذاهب الفلاسفة النظريين . وهذا غير صحيح ولا هو المراد من الفلسفة العملية وانما يراد بها التوفيق بين المعتقدات الدينية والنظرية وبين الحقائق العملية لانهُ ان كانت العقائد الدينية والنظرية نافعة او صالحة لتكون معزية للانسان مدرّبة لهُ في اعماله وافكاره فهي مما تطلبهُ الفلسفة العملية وتؤيدهُ . واي نفع اكبر من نفع الاعتقاد الذي يعزي النفس ويصلح السيرة والسريرة »

فلما رأوا منهُ ذلك قالوا انهُ يعلم الناس ليعتقدوا اي اعتقاد كان من غير تمييز مع ان كلامهُ صريح في ان الانسان مضطر ان يعتقد الاعتقاد الذي يراهُ صواباً نافعاً لهُ ولا يحول عنهُ الا متى رأى اعتقاداً آخر اصوب منهُ وانفع فيترك الاول ويتمسك بالثاني . ولكن ترك القديم صعب وكذلك التمسك بالجديد

ومن مؤلفاتهِ كتاب «مبادىء السيكولوجيا المشار اليهِ آنفاً طبع سنة ١٨٩٠ وكتاب دروس السيكولوجيا سنة ١٨٩٢ وارادة الايمان سنة ١٨٩٦ وخلود الانسان ١٨٩٨ . واحاديث مع المعلمين ١٨٩٩ وتنوعات من الاختبار الديني ١٩٠٢ والبرغماتزم ١٩٠٧ وعالم غير فردي ١٩٠٩ . ومعنى الحق ١٩٠٩ عدا ما لهُ من الخطب والمقالات الكثيرة في المجلات العلمية والفلسفية فمات وهو بين الحابر والدفاتر